الفصل الرابع

أدب البحر فى « ألف ليلة وليلة »

مهدت قصص التجار العرب البحرية لظهور قصص السندباد أعظم أعمال أدب البحر اكتمالا وتأثيراً فى التراث الشعبى العربى وفى الأدب العالمى كله . فظهرت « رحلات السندباد » أولا ككتاب مستقل ، ثم ضمنتها ألف ليلة وليلة مع مجموعة من القصص البحرية العربية الأصل ، وشكلت أكثر أعمال أدب البحر العربى عبقرية ، فنيًا وعلميًا . كما أفادت هذه القصص البحرية بدورها فى تطور أدب البحر عند العرب فيما بعد على أيدى ابن ماجد وملاحى الخليج فى أدب المرشدات البحرية ، « الرهنامج » أو « الرهمانى » ، فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، الذى نعرض له فى الفصل التالى .

ومعروف أن ألف ليلة وليلة من أهم أعمال الأدب الشعبى العربى ، بالرغم من أصلها الهندى وترجمتها الفارسية ، إلا أنها بصياغتها العربية وإضافاتها العربية الكثيرة وأسمائها العربية للمدن والملوك ووقائعها العربية وروحها العربية ، تعد عملا من أعمال العبقرية العربية فى الأدب الشعبى العربى .

وقد نقل العرب قصص ألف ليلة وليلة لأول مرة عن كتب الفرس التى ترجم إليها الأصل الهندى الأول ، ثم تعددت الصياغات والإضافات العربية مع تداول القصص حتى صارت إلى صورتها المعروفة لدينا . ومن هنا اجتمع لألف ليلة ثلاثة مصادر : الأصل الهندى والترجمة الفارسية والإضافات العربية التى تشكل حجماً كبيرًا لأنها نقلت نقلا من كتب الأدب العربى وأخبار الرحالة والتجار العرب . وإلى هذه المصادر العربية ترجع قصص ألف ليلة وليلة البحرية .

وتقول الدكتورة سهير القلماوى فى رسالتها عن « ألف ليلة وليلة » إنها مجموعة من القصص المتفرقة كان القصد من كتابتها تسلية العامة شفاهًا ، وتسميعاً . وإنها عاشت « قرونا متتالية يتحكم فيها ذوق السامعين فلا يجد هذا التحكم من القاص أقل تحرج من التلاعب بالأصل

بأقصى ما يمكن أن يكون التلاعب . ولقد ساعدت على هذا طبيعة الأثر نفسه » . وأنها تضم « مجموعات مترجمة من القصص الهندية والفارسية ومجموعات مما روى فى اللغة العربية على أنه أخبار ، أو قصص قديمة ذكر فى بعض مصادر التاريخ أنها كانت كتبًا مستقلة كقصة السندباد وشماس أو السبع وزراء ، بل إن من هذه القصص ما لا يزال نابيًا فى المجموعة تظهر إضافته واضحة قوية » . وإنها « مجموعة من القصص تختلف عصورها وأصولها ومواطنها ، لا شىء يحكم ربط أجزائها على هذا النحو ولا شىء يحد من مادتها ، وكذلك لا نعرف اسم مؤلف واحد ولا اسم قاص واحد من ألفوا قصصها ، أو قصوها بأسلوبهم »[1] .

ويتفق معظم الباحثين فى ألف ليلة وليلة على أن قصة السندباد عربية الأصل وأنها وجدت فى نسخ مستقلة وفى كتاب يحمل اسم السندباد ، وأنها أضيفت إلى النص الأول لألف ليلة . بل يرى البعض (مثل رودى باريت) أن القصص الأخرى الواردة فى النص الأول لألف ليلة وليلة ترجع إلى أساطير عربية انتشرت فى الهند وفارس قبل ظهور الإسلام . ولعل هذا هو ما يفسر التشابه فى الفكر والجوهر فى معظم القصص وترديد الكثير من الأسماء العربية والأحداث العربية بها .

صدرت أول ترجمة فرنسية من ألف ليلة وليلة لأنطون جالان فى أوائل القرن الثامن عشر ، ونشرت فى أجزاء فى السنوات من ١٧٠٤ – ١٧١٣ . وعن هذه الترجمة الفرنسية صدرت الترجمات الأخرى باللغات الأوربية فى القرن الثامن عشر أيضًا بالإنجليزية والإيطالية والهولندية والدانمركية والروسية والألمانية وغيرها . ثم صدرت ترجمات أخرى فى القرن التاسع عشر اعتمادًا على النص العربى الصادر عن مطبعة بولاق ، مثل ترجمة الدكتورج .ك . مردوس الصادرة فى ١٦ جزء فى السنوات ١٨٩٩ – ١٩٠٦ . أما فى العربية فإن أكمل طبعاتها هى طبعة بولاق الصادرة فى سنة ١٨٣٥م . أما الطبعات الأخرى فهى غير كاملة تمتلئ بالإضافة والحذف . وترجع أقدم النسخ إلى القرن الرابع الهجرى والقرن العاشر الميلادى .

وقد نالت ألف ليلة وليلة من اهتمام الغرب ، علماء وكتاب وفنانين وقراء ، أكثر مما حدث فى الشرق العربى ، وجذبت اهتمام المستشرقين والرحالة والأدباء والدارسين والتجار فى الغرب ، نحو الشرق . وأثرت فنون الأدب الغربى والرسم والموسيقى والمسرح ، من قصص الأطفال لدى هانز اندرسون إلى روبنسون كروزو ، ورحلات جلفر ، وروايات « الرسائل

(١) الدكتورة سهير القلاوى ، ألف ليلة وليلة ، ص ٢٤ – ٢٦ .

الفارسية » لمونتسكيو و « الحلى غير المتحفظة » لديدرو و « كانديد » لفولتير ، ورحلات جول فيرن وكتب هـ . ج . ويلز ، وهرمان ملفل مبدع الرواية البحرية العظيمة « موبى ديك » فـ « منذ شبابه تعرف ملفل على ألف ليلة وليلة . وفى شظايا التى كتبها وهو بعد مراهق يقتبس ملفل على نحو موسع فى قراءاته هذه ويشير إليها على نحو واضح[٢] » .

وقد ظهر التأثير جليًّا فى بعض عناوين المؤلفات الأدبية مثل « ألف سهرة وسهرة » و « ألف ساعة وساعة » ، كما تجلى بصورة أوضح فى مضامين الأعمال الأدبية الفرنسية وفى الجو العام السائد فى تلك الأعمال . وكان تأثير القصص البحرية هو التأثير الغالب فى الأدب الغربى فانتشرت الكليشيهات المعروفة مثل العواصف البحرية والغرق والجُزُر الخالية ومصارعة الكائنات الخيالية والتغلب عليها (لأن البطل يجب أن ينتصر دائمًا) والتنكر بزى الجنس الآخر .. وظهرت كذلك فى الرواية الفرنسية الجنيات والحوريات والسحرة والحيوانات المسحورة وجبال المغناطيس .. كما كتبت كثير من الأعمال الأدبية العالمية بتأثير حكايات السندباد البحرى ، وأشهرها رواية « كانديد » لفولتير – « فإن سفر كانديد إلى الدورادو يشبه كثيرًا مغامرات السندباد البحرى ، كما وأن بطل فولتير قدرى كالسندباد[٣] . وحكايات الكاتب الألمانى فيلهلم هاوف الذى تأثر بحكايات السندباد ونسج حكاياته على منوالها وذكر فى حكايته عن « السفينة الشبحية » عبارة كنوز السندباد البحرى . « ووجود هذه العبارة فى حكاية هاوف يدل دلالة واضحة على أنه عرف حكاية السندباد معرفة تامة ، وتأثر بها وهو يكتب حكايته ، بل هو يشير بذلك إلى مصدرها . فالواقع أن ما وقع لبطله عندما غرقت سفينته يشبه ما وقع لعبد الله بن فاضل من ناحية ، وما وقع للسندباد البحرى فى سفرته السادسة من ناحية أخرى . فبطل حكاية السفينة الشبحية من البصرة مثل عبد الله فاضل . وقائد السفينة يعلن أنه لا يعرف طريق البحر حتى يستطيع أن يتجنب العاصفة التى ستهب بعد حين ، ومن ثم يأمر بطى القلوع ، فتستمر السفينة فى سيرها ، ثم تهب العاصفة فيهتف : لقد ضاعت سفينتى ، فها هو الموت قد نشر شراعه هناك ! وهكذا غرق ركاب السفينة ، ولم ينج

---

(٢) جون د . أديكسون ، انعكاس البلاد العربية ، ثقافتها وفكرها ، فى الأدب الأمريكى ، مجلة المعرفة ، عدد خاص عن تأثير الأدب العربى فى الآداب الأجنبية ، رقم ١٩١ – ١٩٢ ، كانون الثانى – شباط ١٩٧٨ ، (ص ١٣١ – ١٤٩) .

(٣) الدكتور جمال شحيد ، ألف ليلة وليلة فى الأدب الفرنسى ، المرجع السابق ص ٢٥٣ –٢٥٩ .

من ذلك سوى أحمد وخادمه مولاى »[٤] .

وتأخر الاهتمام بألف ليلة وليلة علمياً فى الشرق العربى بالرغم من انتشارها الواسع بين العامة والقراء العاديين ، فظلت بمنأى عن الدراسات العلمية واهتمام المثقفين حتى خصصت د . سهير القلماوى ، بتشجيع من الدكتور طه حسين ، رسالتها للدكتوراه عنها وكان هذا هو أول اعتراف علمى بالأدب الشعبى وبفن الحكاية الشعبية فى جامعاتنا العربية . ثم توالت اهتمامات الكتاب والدارسين العرب بألف ليلة وليلة بعد دراسة د . سهير القلماوى الرائدة (سنة ١٩٤١) ، من الدكتور حسين فوزى فى كتابه « حديث السندباد القديم » إلى الأديب اللبنانى فاروق سعد وكتابه « من وحى ألف ليلة وليلة » وكتاب « ألفة الأدلبى » « نظرة فى أدبنا الشعبى » عن ألف ليلة وليلة وسيف بن ذى يزن . مروراً بالفصول المختلفة التى كتبها كبار الكتاب مثل أحمد أمين وأحمد حسن الزيات ، وانتهاءً بكتاب « الملامح السياسية فى حكايات ألف ليلة وليلة » (بغداد ١٩٧٨) للباحث أحمد محمد الشحاذ ، وفيه يقدم تفسيراً سياسياً لألف ليلة وليلة .

غير أن للدكتور حسين فوزى فضل الريادة فى دراسة القصة البحرية العربية فى ألف ليلة وليلة فى بعض فصول كتابه « حديث السندباد القديم » . فلم ينل هذا الموضوع عناية أحد سواه من قبله وحتى اليوم ، على قدر علمى . وقد اتجه الدكتور حسين فوزى إلى القصة البحرية بدافع من حبه للبحر . واستعار من ألف ليلة وليلة اسمه الأدبى الذى طبع به كل مؤلفاته اللاحقة « سندباد » .

وقد اعتمدنا فى دراستنا لألف ليلة وليلة على طبعة دار الشعب المصرية التى أعدها أحمد رشدى صالح الناقد والباحث المعروف فى فنون الأدب الشعبى ، لأنها أكمل الطبعات التى حافظت على القصص والحكايات والنوادر كاملة وبنفس ترتيبها ، ولم يقم بأى تدخل بالإضافة أو الحذف ، إلا من بعض العبارات القليلة التى تخدش الحياء وتمس الآداب العامة ولا تؤثر فى شكل الحكايات أو مضمونها .

تبدأ ألف ليلة وليلة بحكاية تمهيدية معروفة عن اكتشاف الملك شهريار لخيانة زوجته مع أحد عبيده السود ، وتصميمه على الثأر من جنس النساء كله ، بقضاء ليلة مع إحدى بنات الجنس ثم قتلها . غير أن شهر زاد تنجح فى وقف تلك المذبحة الثأرية اليومية بقصصها

(٤) الدكتور أبو العيد دودو ، فيلهلم هاوف وألف ليلة وليلة ، المرجع السابق .

وحكاياتها المتتابعة والمتفرعة إلى نوادر كثيرة. وفى دراسته عن « ألف ليلة وليلة وفن الحكاية الشعبية » يقدم أحمد رشدى صالح تفسيرًا عقلانيًا لموقف شهريار وشهر زاد فى هذه الحكاية التمهيدية . فينفى عن شهريار صفة السفاح ، بل يراه فى صورة الزاهد الذى بدأ برفض حياته وهجرته من مقر حكمه ، ثم استرداده لوعيه بعد معرفته بحكاية خيانة الجارية للهارد ، وتصميمه على الانتقام . ويقول رشدى صالح « بأن شهريار قد أصبح إنسانا يمر بأزمة فكرية نفسية » وأنه كان إنسانًا قلقًا يبحث عن حل أجدى من قتل العذارى وأن شهر زاد قد أعطته ما كان يبحث عنه .. فى شكل مئات القصص والمعلومات وأخبار غرائب الكون والطبيعة وأخبار الملوك والصعاليك . وبذلك فتحت شهر زاد آفاق عقله مع الحكايات والنوادر التى أخذت تفرج من أزمته وقلقه . وأن ألف ليلة وليلة مهدت لشخصية شهر زاد بما روته عن قراءاتها العميقة الواسعة فى كتب التاريخ والسير والعلوم والآداب . « فشهر زاد – إذن – كما يقول رشدى صالح ، عقل ناضج ومعرفة كاملة أو هى أداة تستعرض من خلالها شتى الأخبار والسير ومختلف الأقوال والحكم . وأما شهريار فيتطلع إلى معطيات هذا العقل والمعرفة : والحكايات ذاتها خيوط تنسج ، وتتلاحم ، فتنمو فى شهريار – ذلك الإنسان المتوتر القلق الذى كان يسفك دم العذارى – شخصية شهريار طالب المعرفة »(٥). وهو تفسير معقول لكل ما حوته ألف ليلة وليلة من معلومات وأخبار وصياغة قصصية فنية تستوعب أسلوب الحكاية الشعبية ، القائم على ذكر الحدث الأصلى والتفرع منه إلى أحداث فرعية ثم الارتداد إلى الحدث الأصلى . فالبناء الفنى قائم على الاستطراد وتراكم النوادر الفرعية ، وهذا التراكم يؤدى بدوره إلى تفريج الأحداث الأصلية للقصة ، فالتراكم يعمل على نقيضه أى يؤدى إلى الانفراج . ويقول رشدى صالح إن وظيفة النوادر الفرعية أنها تساعد على تركيب الحكايات الأصلية وشرحها وإيضاحها وتفسير ظواهر الطبيعة والبشر.

أما الدكتورة سهير القلماوى فترى أن طبيعة الكتاب القائمة على التدوين قد أحدثت أثرين فى الشكل الفنى لقصص ألف ليلة وليلة . الأول أنها ألجأت القصاص إلى نقل معلومات جاهزة من الكتب عن عجائب البحار والخلق وأخبار الملوك والأدباء وغيرها من القصص المعروفة فى البلاد التى اتصل بها المسلمون . والأثر الثانى أن هذا التدوين ساعد على الارتفاع

(٥) أحمد رشدى صالح ، ألف ليلة وليلة وفن الحكاية الشعبية . مقدمة ألف ليلة وليلة ، طبعة دار الشعب بالقاهرة . ص ٧ .

بمستوى القصص الشعبى المتداول ، والمعروف لدى شعوب المنطقة ، بإثراء القصص بالخيال والأخبار والمعلومات والحرص على جودتها فنيًا ، وذلك جنبًا إلى جنب مع القصص العربية الأخرى المنقولة بسذاجتها من البيئات العربية . لذلك جاءت بعض القصص العربية منقولة بحالتها من كتب الأدب دون تصرف أو صياغة فنية مثل أخبار المعلمين والصالحين . على حين لعب الفن دوره فى بقية القصص الأخرى فأضافت عبقرية الفنان الخلاقة إلى الحكايات ، عند نقلها من كتب الأدب إلى ألف ليلة وليلة . أما طريقة القص الحافلة بالاستطرادات والتكرار فهى مألوفة فى كتب الأسمار العربية .

ولا شك أن حكايات السندباد ورحلاته هى أعظم القصص فى أدب البحر عند العرب وأكثرها تعبيرًا عن عالم البحر ، أوكما يقول الدكتور حسين فوزى أنها « القصة البحرية الكبرى فى الأدب العربى ، وهى فوق هذا واحدة من أهم قصص البحار فى آداب العالم .. » وأنها « قصة جغرافية تلخص المعارف البحرية عند العرب فى القرون الوسطى » لأن « البحر فى قصة السندباد هو الغاية التى تنتهى إليها القصة . البحر هو ممثلها الأول (البروتاجونست) أو أنها حوار بين اثنين البحر والسندباد . حوار يتطور من الهدوء إلى العنف ، ومن تبادل الود إلى تداول اللكمات ، والمناجزة والصراع »[٦] . ويرى المستشرق « أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى » أنها تتصل بالقصص البحرية السابقة للتجار العرب ، وأنها عرفت أولا ككتاب عربى مستقل ثم أضيفت إلى قصص ألف ليلة وليلة ، وأنها ليست خرافة . « إذ استبان من أبحاث رينودى خويه وفيران أن أسفار السندباد انبعثت فى نفس الوسط الذى نشأت فيه قصص التاجر سليمان فى نفس مواضعها أيضاً أى سيراف والبصرة وبغداد ، بل وفى نفس العصر تقريبًا أى حوالى عام ٩٠٠ .. ويرجع كازانوفا تاريخها بالتحديد إلى عصر الرشيد ، أما مسرح حوادثها فهو الهند وأرخبيل الملايو ، وقد أمكن تحديد بعض حوادثها بالكثير من الدقة » . ويعرض كراتشكوفسكى لتأثير السندباد فى سير القديسين فى أوائل العصور الوسطى وفى أساطير المسيحية الأوربية ، ويقول إن « أسطورة القديس براندان التى ترجع إلى أوائل القرن الحادى عشر مدينة بالكثير فى بعض مواضعها لهذه القصص » وهذا كله يؤكد عروبة قصة السندباد ورحلاته وتمثيلها للثقافة العربية ولأدب البحر العربى فى زمانها .

---

(٦) الدكتور حسين فوزى ، حديث السندباد القديم ، ص ٣٥٦ و ٣٥٧ .

بدأت شهر زاد تروى حكاية السندباد للملك شهريار فى نهاية الليلة الثامنة والعشرين بعد الخمسمائة . واستمرت الحكاية عبر الليالى التالية حتى الليلة السابعة والخمسين بعد المائة الخامسة . وهذا التقطيع فى الحكايات عبر الليالى هو الأداء الفنى المميز فى ألف ليلة وليلة للتشويق وشد المتلق إلى نهاية الحكاية . وحددت شهر زاد زمن الحكاية بأنها وقعت فى عهد الخليفة هارون الرشيد . واستهلتها بحكاية تمهيدية عن لقاء السندباد « الحمال » ، الذى يعمل حمالا على البر ، بالسندباد البحرى فى قصره الفاخر بعد استماع الأخير لحديث الأول عن حكمة الله فى توزيع الأرزاق ومقارنته بين فقره وعمله الشاق وبين قصر السندباد البحرى الفخم وبساتينه المورقة المثمرة وآيات الثراء والوفرة لديه . وفى هذه الحكاية نطالع الجو العربى والأخلاق الإسلامية والطقوس الإسلامية أيضاً ، كالتسليم بالقضاء والقدر وتقسيم الأرزاق وتكرار ذكر اسم الله تعالى ، وغير ذلك من العادات العربية والجو العربى .

وتمهد هذه الحكاية لحكايات أسفار السندباد البحرى ، الذى يقرب السندباد الحمال من مجلسه ويكرمه ويخبره بأنه جمع ماله وأقام قصره بعد عناء وتعب فى رحلاته السبع الشاقة ، ويسردها على مسامعه . وهكذا تتفرع الحكاية الأصلية إلى سبع حكايات فرعية ، تحمل كل منها حكاية رحلة من رحلات السندباد البحرى ، موزعة على عدة ليالٍ ، ثم تختتم كل حكاية من الحكايات السبع بالعودة إلى الحكاية الأصلية وهو الشكل المتبع فى حكايات ألف ليلة وليلة . وهكذا تجمع الحكاية بين الزمنين الماضى والحاضر ، وتمزج بينهما وتستخدم أسلوباً فنيًّا متقدمًا أقرب إلى الرجوع للخلف (الفلاش باك) المستخدم فى القصة الحديثة .

جمعت حكاية الرحلة الأولى للسندباد البحرى بين المغزى الفكرى ، وبين أدب البحر . بين دعوة السندباد البحرى إلى الكفاح والكد والمغامرة فى الحياة ، وبين التمرس بأسفار البحر وتجارته وأنوائه ومغامراته . ويذكر السندباد البحرى بعض أبيات الشعر العربى بدون ذكر لقائلها تأكيدًا لقوله للسندباد الحمال بأن الأرزاق توزع حسب الاجتهاد والكد ، ونكتفى منها بهذين البيتين :

بقدر الكد تكتسب المعالى ومن طلب العلا سهر الليالى
يغوص البحر من طلب اللآلى ويحظى بالسيادة والنوال

---

(٧) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، جـ ١ ، ص ١٤١ - ١٤٣ .

وهكذا يبدو البحر مجالا للكفاح والعمل الشاق من أجل حياة أفضل . هذا جانب الفكر فى الحكاية الأولى . أما جانب البحر ، فإنها امتداد لقصص تجار البحر العرب ، تجمع بين المعارف البحرية الشائعة فى زمانها وإبداع الخيال والخلق الفنى.فالسندباد البحرى فى هذه الحكاية ، ضاقت به الحياة على الأرض بعد سعة . فباع ما تبقى لديه من ميراثه واشترى بثمنه بضاعة للتجارة عبر البحار ، عملا بقول الشاعر بأن الغوص فى البحر هو طريق الفوز باللآلئ وتحقيق الآمال الكبار . ومن ثم اتجه من بغداد إلى ميناء البصرة منطلق التجار العرب إلى البحر وملتقاهم . ويركب السندباد سفينة تحمل أمثاله من التجار العرب مع بضائعهم ، ويركب البحر ويهبط الجزر والشواطئ ، يبيع ويشترى ويقايض ويتبادل البضائع ، وينتقل من بحر إلى بحر ومن جزيرة إلى جزيرة حتى يصل إلى جزيرة جميلة كأنها الجنة ، فينزل بها ، مع بقية التجار ، ويضع رحاله ويشعل لهم المواقد . غير أن ربان السفينة يصرخ فيهم محذراً بأنهم يقفون فوق سمكة ضخمة (ربما عنى بها الحوت) ، وأنهم أيقظوها بنيرانهم ، وأن عليهم ترك كل شىء وأن يهرعوا فوراً إلى السفينة قبل إقلاعها . فيلحق بالسفينة من يلحق ويغرق الباقون عندما تأخذ السمكة الهائلة فى التحرك والغوص فى الماء بما عليها .

ويفلت السندباد البحرى من السفينة ومن الغرق . ويتعلق بقطعة خشبية ويكافح الأمواج والرياح ، حتى يهبط بجزيرة ظل يأكل من فاكهتها ويخلد للنوم إلى أن يكتشفه أهل الجزيرة ويقودونه إلى ملكهم ، الذى يقربه من مجلسه ، بعد أن سمع بقصة كفاحه البحرية . وفى هذه الجزيرة يسمع السندباد البحرى بقصة حصان البحر الذهبى الذى يظهر مرة كل شهر على ساحل الجزيرة ويحاول جذب خيولها البرية إلى قاع البحر ولكنه يفشل فى ذلك نظراً لأنها مقيدة ، فيعاشر إحداها مرة كل شهر لتحمل « وتلد مهراً أو مهرة تساوى خزانة مال » . فالبحر فى هذه الحكاية هو عالم بالغ الثراء والاتساع والغموض ، يمنح ثرواته لمن يكد ويناضل فى سبيل الفوز بها . أما السندباد البحرى فيلتقى فى نهاية الحكاية بسفينته الأولى ويجد عليها بضائعه كاملة ، فيهدى بعضها إلى ملك الجزيرة ويتلقى منه الهدايا الثمينة ويبيع بقية بضائعه ويعود إلى ميناء البصرة ومنها إلى مدينة بغداد فيشترى الدور والبساتين ويعيش حياته الحافلة بالثراء والبهجة والمآكل والمشارب .

كانت الرحلة الأولى للسندباد عبر البحار رحلة استكشاف للبحر وبحث عن الثراء والسعة فى الرزق والعيش ، تمرس خلالها السندباد البحرى بمشاق البحر وتعرف إلى عالمه وتقلباته وجنى

ثماره وعاد بمكاسبه وثرائه . أما الرحلة الثانية فجاءت فى حين كان السندباد البحرى فى رغد من العيش وثراء وافر . ومن هنا كان الدافع إلى الرحلة هو متعة الرحلة البحرية ذاتها ، مع التمتع بمزايا التجارة البحرية والكسب الوافر منها . لذا فإنه يصف الرحلة فى بدايتها وصفاً ممتعاً يشيد بحبه للبحر والسفن . فيقول بعد أن يصف شوقه للرحلة : « فهممت فى ذلك الأمر ، وقد أخرجت من مالى شيئًا كثيرًا ، واشتريت به بضائع وأسباباً تصلح للسفر ، وحزمتها وجئت إلى الساحل ، فوجدت سفينة مليحة جديدة ، وهى كثيرة الرجال زائدة العدة ، ونزلت حمولتى فيها أنا وجماعة من التجار ، وقد سافرنا فى ذلك النهار وطاب لنا السفر »[٨] .

وتتميز قصة هذه الرحلة الثانية بسعة الخيال وبالاهتمام بعجائب البحر والمخلوقات . ففيها يتحدث السندباد البحرى عن طائر الرخ الضخم الذى يحجب قرص الشمس ونورها بضخامته ويزن أولاده بالأفيال ، ويبلغ محيط بيضته « خمسين خطوة وافية » . ويتحدث أيضاً عن وادى الحيات وعن أحجار الماس وعن حيوان الكركدن وعن أشجار الكافور .

كانت الرحلة البحرية الثانية فى بدايتها رحلة جميلة ناجحة من بحر لبحر ومن جزيرة لجزيرة حتى رست السفينة على جزيرة مورقة كثيرة الأشجار والثمار ، فأكل منها السندباد ونام حتى أخذته سنة من النوم فأقلعت السفينة تاركة إياه وحيدًا فى الجزيرة . وظل يندى سوء حظه ومصيره التعس الذى دفعه إلى هذه الرحلة البحرية على حين أنه فى رغد من العيش والثراء . ثم تعلق بطائر الرخ بأن ربط عمامته برجل طائر الرخ الذى حمله إلى قمة جبل ونزل به إلى وادى الحيّات الضخمة ، حتى تمكن بعض التجار العرب ، الباحثين عن الماس ، من إنقاذه والعودة به إلى ميناء البصرة ثم بغداد حيث قصره وجواريه وحياته السعيدة المترفة . ومعروف أن الكاتب البريطانى الكبير هـ . ج . ويلز تأثر بقصة طائر الرخ ونقلها فى أحد أعماله الأدبية (جزيرة أيبيريا) .

وفى حكاية الرحلة البحرية الثالثة تتكرر نفس القصة بإضافات جديدة . فتغدو حكايات السندباد البحرى أشبه بتنويعات على لحن واحد . فتتكرر بعض الفقرات من هذه القصص فى كل قصة بألفاظها وعباراتها ، ويتكرر ضياع السندباد فى كل رحلة ومصارعته للأمواج والأنواء والأهوال فى البحر والبر . وتبرز القيم النبيلة كالإخلاص والوفاء والأمانة .

فالسندباد ما إن يستقر فى قصره بمدينة بغداد ، وينعم بالحياة المترفة السعيدة ويغترف من

---

(٨) ألف ليلة وليلة ، ص ٨٢٥ .

ملذاتها ، حتى يتحرك فيه الشوق للإبحار ، فيجهز لرحلته البحرية التالية ، ويغادر بغداد إلى ميناء البصرة ، مدينة التجار العرب ، ويركب السفينة مع أقرانه من التجار العرب . وتتكرر أوصاف الرحلة البحرية والمفاجأة البحرية كذلك ، ويمتزج الواقع بالخيال كما هو الحال فى قصص السندباد ، إذ تجتمع فيها المعلومات الجديدة والخيال المبدع فى تصوير عالم الجن والمردة وعجائب المخلوقات . فتصل السفينة إلى « جبل الزغب » ويصف السندباد الزغب أوصافاً عجيبة . فهم كثيرون كالجراد حتى ملئوا البحر والسفينة . وهم أقرب إلى الأقزام الذين ظهروا فى قصص الأقزام الغريبة الحديثة ، « صفر العيون سود الوجوه صغار الخلقة ، طول كل واحد منهم أربعة أشبار . وقد طلعوا على حبال المرساة وقطعوها بأسنانهم ، وقطعوا جميع حبال المركب من كل جانب ، فمال المركب من الريح ورسا على جبلهم وصار المركب فى برهم . وقد قبضوا على جميع التجار والركاب وطلعوا إلى الجزيرة ، وأخذوا المركب بجميع ما كان فيه . وراحوا إلى حال سبيلهم ، وقد تركونا فى الجزيرة ، وخفى عنا المركب ولا نعلم أين راحوا به »[٩] .

وفى الجزيرة تنشق الأرض عن مارد ضخم ينتقى كل ليلة أحدهم ويشويه على النار ويلتهمه . ويخوض السندباد معارك الحياة والموت مع المارد ومع الثعابين الضخمة ، فهو بطل القصة الذى لا يموت والذى ينتصر فى النهاية ويفوز بالمكاسب واللذات . وفى هذه القصة أيضاً تتكرر عودة السفينة الأصلية وعليها بضائع السندباد كاملة لم تمس تحمل اسمه . ويطلب منه ربان السفينة أو « رئيس المركب » أن يتاجر فيها باسم صاحبها ويشاركه فى الربح . غير أن السندباد البحرى يكتشف فيها بضاعته المفقودة ويروى قصته ، ويستشهد ببعض التجار الذين يتعرفون عليه . وهكذا تعود إليه تجارته ويبيع ويربح ، ويحمل معه مكاسبه وهداياه عائداً إلى داره فى بغداد لينعم بالحياة السعيدة .

وفى الرحلة الرابعة تتكرر الحكاية البحرية من الشوق للرحلة و « السفر إلى بلاد الناس » ، و « مصاحبة الأجناس والبيع والمكاسب » ، وركوب السفينة ، والانتقال من بحر إلى بحر ومن جزيرة إلى جزيرة ، حتى تهاجم الأعاصير السفينة وتغرقها الأمواج . ويتعلق السندباد البحرى مع بعض زملائه التجار فى لوح خشبى ليل نهار حتى يصلوا إلى جزيرة بها قوم عراة ، قدموا لهم

(٩) المصدر السابق ، ص ٨٣٠ .

طعامًا ذهب بعقلهم ومحا إدراكهم وجعلهم يلتهمون الطعام بدون وعى حتى ملأت السمنة أجسامهم ، فقدمهم العراة لمكلهم بعد شيهم على النار .

أما السندباد البحرى فهو الوحيد الناجى من المذبحة لأنه البطل الذكى القادر على اجتياز العقبات والتغلب على الصعاب . ويفر السندباد من مصير زملائه ليقع فى مصير أبشع ، إذ يدفن مع زوجة له من المجوس تزوجها فى جزيرة أخرى ثم ماتت ، ولكنه يتغلب على المحنة الجديدة بالحيلة والذكاء ، ويفر من قبره عبر كوة فى الجبل نافذة إلى البحر ، حاملا معه زاد الموتى وحليهم وجواهرهم الثمينة التى تدفن معهم طبقًا لطقوس الموت عندهم ، وهى أقرب إلى الطقوس الفرعونية . وهناك تنقذه سفينة مارة ، ويعرض السندباد البحرى على ربانها مكافأته ماليًا فيرفض الأخير بإباء وشمم ، ويعلمه أنه ينقذه طبقًا لتقاليد البحر العربية ، وهى تقاليد المروءة العربية والكرم العربى ، كما يوضحها رئيس المركب قائلا : « نحن لا نأخذ من أحد شيئًا ، وإذا رأينا غريقًا على جانب البحر أو فى الجزيرة نحمله معنا ، ونطعمه ونسقيه ، وإن كان عريانا نكسوه ولما نصل إلى بر السلامة نعطيه شيئاً من عندنا هدية ، ونعمل معه المعروف والجميل لوجه الله تعالى » . ويعود السندباد إلى داره ببغداد كما يحدث فى نهاية كل رحلة من رحلاته .

ويشترى السندباد البحرى « سفينة كبيرة عالية مليحة » وعدتها جديدة فى رحلته البحرية الخامسة ، ويضع فيها عبيده وغلمانه وتجارته ، ويأخذ معه التجار العرب ، ويعين عليها رئيسًا وبحارة لقيادتها . وتنطلق السفينة من بحر إلى بحر ، كما يحدث فى سائر رحلاته . وتقع أولى مفاجآت الرحلة فى انتقام طائر الرخ من ركاب السفينة ويغرقها جزاءً لتحطيمهم إحدى بيضاته الضخمة وأكلهم لحم أفراخه .

وينجو السندباد وحده كالعادة ، ويلجأ إلى جزيرة يلتقى فيها بشيخ البحر ويصفه بصفات خارقة ، كما يصف العامة الجن والعفاريت ، فرجليه « مثل جلد الجاموس فى السواد والخشونة » ، ولكن هيئته آدمية » وينجو السندباد البحرى من محاولة شيخ البحر قتله بأن يسكره ويقتله . وتنقذه سفينة أخرى ، فيلجأ إلى جزيرة للقرود حيث يجمع ثمار جوز الهند ، ويمر بجزائر القرفة والفلفل ويقايضها بالجوز الهندى ويعود سالماً رابحًا إلى البصرة ومنها إلى داره ببغداد .

أما حكاية الرحلة السادسة ، فهى قصة بحرية خالصة يستهلها السندباد البحرى بنفس

المقدمة ، عن نسيانه لمشاق الرحلة السابقة ، وتوقه إلى السفر بالبحر والرؤية والفرجة ، والتعرف على الناس والبلاد والتجارة والمبادلة والمقايضة والربح ، وركوبه سفينة كبيرة مليحة تقل التجار العرب عبر البحار ، حتى صار رئيس المركب يصرخ وينعاهم لدخولهم فى بحر خطر فيه هلاكهم جميعاً : «فقال لهم الرئيس :

– اعلموا يا جماعة أننا تهنا بمركبنا ، وخرجنا من البحر الذى كنا فيه ، ودخلنا بحراً لم نعرف طرقه ، وإذا لم يقيض الله لنا شيئًا يخلصنا من هذا البحر هلكنا بأجمعنا ، فادعوا الله تعالى أن ينجينا من هذا الأمر .

ثم إن الرئيس قام على حيله وصعد على الصارى ، وأراد أن يحل القلوع ، فقويت الريح على المركب فردته على مؤخرته فانكسرت دفته قرب جبل عال ، فنزل الرئيس من الصارى .. »

ثم يصف السندباد تفاصيل غرق المركب بمن عليه بعد أن حطمتها الأنواء على حافة جبل . ويغرق غالبية التجار وينجو السندباد البحرى مع قلة يلجئون إلى جزيرة فيها كنوز البحر الغارقة من « أصناف الجواهر والمعادن واليواقيت الملوكية » ، وفيها أيضا « العنبر الخام » الذى يعده السندباد ثروة من ثروات البحر فإنه « يسيل مثل الشمع على جانب تلك العين من شدة حر الشمس ، ويمتد على ساحل البحر فتطلع الهوايش من البحر فتبتلعه وتنزل به البحر فيحمى فى بطونها ، فتقذفه من أفواهها فى البحر فيجمد على وجه الماء . فعند ذلك يتغير لونه وأحواله فتقذفه إلى جانب البحر فيأخذه السياح والتجار الذين يعرفونه فيبيعونه »[١٠] .

ويجمع التجار تلك الثروات الملقاة على الشاطئ ليحملوها فى رحلة العودة . غير أن زادهم يتناقص ويعتريهم الضعف « بوجع البطن من البحر » حتى يهلكوا جميعًا عدا السندباد البحرى ، الذى ينفرد وحده يحمل الجواهر والعنبر الخام ويصنع فلكاً من الأخشاب المتناثرة على الشاطئ ويركب له مجدافين أيضاً ، ويبحر به فوق مياه النهر فى رحلة محفوفة بالمخاطر عبر مغارات نهرية جبلية مظلمة ، حتى يصل إلى جزيرة أخرى يسكنها الهنود فيكرمون ضيافته ، ويحمله ملكهم بالهدايا إلى الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد ، لدى عودته إلى بغداد .

وتشوق قصة الرحلة الأخيرة متلقيها بأن يصف السندباد « حكاية السفرة السابعة بأنها « أعجب وأغرب من هذه السفرات » ، ويعبر عن شوقه إلى ركوب البحر قائلا : « فاشتاقت

(١٠) المصدر السابق ، ص ٨٤٩ .

نفسى إلى الفرجة فى البلاد وإلى ركوب البحر وعشرة التجار ، وسماع الأخبار ، فهممت فى ذلك الأمر وقد حزمت أحمالاً بحرية من الأشعة الفاخرة وحملتها من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة ، فرأيت مركباً محضراً للسفر وفيه جماعة من التجار العظام ، فنزلت معهم واستأنست بهم »[١١] .

ويحدد السندباد البحرى مدة هذه الرحلة البحرية بسبع وعشرين سنة ، ويعلن فى نهايتها توبة خالصة عن السفر بالبحر ، ويعد هذه السفرة « غاية السفرات وقاطعة الشهوات » . ذلك أنه جسد خلالها أهوال البحر ، ووصف أضخم حيواناته من الحيتان ، فسبق بقرون كثيرة الروائى الأمريكى هرمان ملفل فى روايته البحرية الكبرى « موبى ديك » عن الحيتان ، ولا شك أن ملفل قرأ رحلات السندباد وتأثر بها بالإضافة إلى خبراته الشخصية كبحار وصياد للحيتان ، وهو ما سنأتى على ذكره فى آخر فصول هذا الكتاب ، عن أدب البحر فى الغرب .

وفى هذه الرحلة السابعة يقول السندباد البحرى لأول مرة بأنه وصل إلى الصين ، فى رحلة « طابت لنا الريح » ، وتحقق فيها الكثير من البيع والربح . غير أن ريحًا عاتية هبت على السفينة وأمطرتها بسيول من مياه الأمطار . ويصف السندباد كل ذلك وصفاً دقيقاً قائلا : « وإذا بريح عاصف هبت من مقدم المركب ، ونزل علينا مطر شديد حتى ابتللنا وابتلت حمولنا ، فغطينا الحمولة باللباد والخيش خوفاً على البضاعة من التلف بالمطر ، وصرنا ندعو الله تعالى ونتضرع إليه فى كشف ما نزل بنا مما نحن فيه . فعند ذلك قام رئيس المركب وشد حزامه وتشمر وطلع الصارى ثم إنه التفت يميناً وشمالا وبعد ذلك نظر إلى أهل المركب ولطم على وجهه ونتف لحيته ، فقلنا : يا رئيس ما الخبر؟ فقال لنا : اطلبوا من الله تعالى النجاة مما وقعنا فيه ، وابكوا على أنفسكم وودعوا بعضكم ، واعلموا أن الريح قد غلبت علينا ورمتنا فى آخر الدنيا »[١٢] .

وأنبأهم رئيس المركب بوجود حيتان ضخمة يمكن أن تبتلع المركب بما فيه . ويصور السندباد ظهور ثلاثة من الحيتان الضخمة ، وما أحدثته من صوت راعد قاصف عند ظهورها على سطح الماء ، وكيف ملأهم الرعب والفزع من خلقة الحوت الهائلة ، وكيف تحركت الحيتان وحطمت السفينة ، وصور كفاحه للأمواج وإعلانه للتوبة عن السفر بالبحر فى قطعة

---

(١١) المصدر السابق ، ص ٨٥٤ .

(١٢) المصدر السابق ، ص ٨٥٤ .

من أجمل أعمال أدب البحر العربى وأغناها بالصور الأدبية المعبرة عن عالم البحر ، لهذا اقتطفت منها هذه الفقرة الطويلة : « ثم إن هذه الحيتان الثلاثة صارت تدور حول المركب ، وقد أهوى الحوت الثالث ليبلع المركب بكل ما فيها ، فإذا بريح عظيمة ثارت فقام المركب ونزل على شعب عظيم فانكسر وتمزقت جميع الألواح وغرقت جميع الحمول والتجار والركاب فى البحر . فخلعت أنا جميع ما كان على من الثياب ، ولم يبق على على غير ثوب واحد ، ثم عمت قليلا فلحقت لوحا من ألواح المركب وتعلقت به ، ثم إنى طلعت عليه وركبته ، وقد صارت الأمواج والرياح تلعب بى على وجه الماء وأنا قابض على ذلك اللوح ، والموج يرفعنى ويحطنى وأنا فى أشد ما يكون من المشقة والخوف والجوع والعطش ، وصرت ألوم نفسى على ما فعلته ، وقد تعبت بعد الراحة وقلت لروحى :

– يا سندباد يا بحرى أنت لم تتب ، وكل مرة تقاسى فيها الشدائد والتعب ، ولم تتب عن سفر البحر ، وإن تبت تكذب فى التوبة ، فقاس كل ما تلقاه ، فإنك تستحق جميع ما يحصل لك »[١٣] .

وتقدر للسندباد البحرى النجاة والتوبة عن أسفاره البحرية بعد مغامرة مع الشياطين . وتنتهى قصة رحلاته البحرية نهاية سعيدة بأن يتزوج من ابنة شيخ التجار ويجمع أموالها بأمواله ، ويستقر أخيراً فى بغداد ، ويهب السندباد الحمال بعض أكياس الذهب لقاء حسن استماعه لقصص رحلاته البحرية . وإنها حقا لأجمل القصص فى أدب البحر العربى القديم ، وأهم قصص البحر فى ألف ليلة وليلة ، كمًّا وكيفًا ، لما تضمنته من رؤى مختلفة لعالم البحر .

وتحتوى ألف ليلة وليلة على عدد كبير من قصص البحر الأخرى ، يكرر بعضها البعض ، أو يدور البعض الآخر منها حول البحر أو فوق البحر فى حين يظهر البحر فيها ثانويًّا وهامشيًّا لأنها تستهدف الوعظ الدينى أو الأخلاقى . لذا سنركز اهتمامنا على القصص البحرية التى تدخل فى أدب البحر ، وتقدم رؤى مميزة لعالم البحر ، ونستبعد تلك القصص المكررة أو التى لا يمثل البحر فيها عالمًا أساسيًّا ، لأنها لا تعنى بالتعبير عن عالم البحر قدر عنايتها بالموعظة الدينية أو الأخلاقية ، وهى كثيرة ، مثل «حكاية أبى قير الصباغ وأبى صير المزين» التى تقع فى بحر الإسكندرية ، وقصة « بلوقيا » الذى دهن جسمه بسائل عشبى وسار فوق مياه البحار السبعة المتفرعة من « حكاية حاسب كريم بن دانيال الحكيم » ، و « حكاية بدر باسم ابن الملك

(١٣) المصدر السابق ، ٨٥٥ .

شهرمان وبنت ملك السمندل » وما حوته من تكرار لما ورد عن أبناء البحر ومدائن البحر وكنوز البحر بشكل أوضح فى « حكاية عبد الله البرى مع عبد الله البحرى » التى سيأتى ذكرها فى السطور التالية ، وقصة حسن الصائغ البصرى .. وغيرها من القصص الأخرى التى تقع على مياه البحر أو تدور حوله ، ولكن وجود البحر فيها ثانوى وغير مؤثر .

القصة التالية فى الأهمية من أدب البحر فى ألف ليلة وليلة هى « حكاية عبد الله البرى مع عبد الله البحرى » . وهى من أمتع القصص الخيالية فى أدب البحر . وهى تخلق عالم البحر خلقاً جديداً ، يجمع بين الأسطورة والخيال ، وتروى القصة الخيالية بوقائع مادية قريبة من منطق عصرها . أما البحر فى هذه القصة فهو عالم هائل يضم فى أعماقه المدن وعجائب المخلوقات مع الثروات والكنوز والجواهر . وهو عالم بالغ النقاء والصفاء والخلق والإيمان الكامل بالله ورسوله محمد عليه الصلاة والسلام . فكل من فى البحر والأرض يسبح بحمد الله ، لذا يحمل الجميع اسم عبد الله ، فالكل عبيد الله ، وفى البحر يفرحون بالموت لأن الروح أمانة أودعها الله فى أجسام كل المخلوقات وهو يستردها متى شاء ، وقد كانت هذه نقطة الخلاف والقطيعة بين بطلى القصة عبد الله البحرى وعبد الله البرى بسبب معرفة الأول بحزن أهل البر لموت أقاربهم .

أما عبد الله البرى ، فهو صياد سمك فقير كثير الأبناء . جاءته زوجته بالمولود العاشر ، وطلبت إليه أن يصطاد رزقه من البحر . ولكنه ظل يومًا كاملا يطرح شبكته فتخرج خالية ، وفى عودته خائباً يائسًا شعر بأزمته عبد الله الخباز فمنحه خبزاً ونقودًا وأمهله حتى يأتيه الخير من البحر . وظل على هذا الحال أربعين يومًا فلا هو يصطاد شيئاً ولا الخباز يكف عن مد يد المساعدة له . وفى اليوم الواحد والأربعين أخرجت شبكته رجلا يدعى عبد الله البحرى ، عرفه بنفسه بأنه من أبناء البحر ، وعقد معه اتفاقاً أن يحضر له قبل طلوع شمس كل يوم حملا من الفاكهة ويبادله بحمل مماثل من الجواهر واللآلئ . وهكذا ظلت العلاقة مستمرة بينهما ، حتى صار الصياد وزيرًا وتزوج ابنة الملك ، ورد الجميل لصاحبه الخباز . ودعاه صديقه عبد الله البحرى للتعرف إلى عالم البحر ، ودهن جسمه بدهان معين يجعله يعيش ويتحرك تحت الماء كالسمك وأبناء البحر .

وفى البحر تأخذ القصة فى إبداع عالمها الخيالى ، عندما يصحب عبد الله البحرى صديقه عبد الله البرى للسير فى عالم البحر والتعرف إلى أهله وعجائب المخلوقات به ومدنه وعاداته

وتقاليده . فوجد عبد الله البرى مخلوقاً ضخماً هائلا أسود الجثة اسمه « الدندنان » يقضى على أبناء البحر ، ويموت من صوت أبناء البر أو أبناء آدم كما تقول الحكاية ، وبالفعل يصرعه عبد الله البرى بمجرد أن يسمعه صوته . وشاهد مدنا كثيرة فى البحر . مثل مدينة بنات البحر ، وسكانها من البنات المنفيات بأمر ملك البحر لغضبه عليهن ، وإذا خرجت إحداهن من المدينة تعرضت للالتهام من دواب البحر . وتصف الحكاية بنات البحر أوصافًا أقرب إلى الآدمية ، فـ « لهن وجوها مثل الأقمار ، وشعوراً مثل شعور النساء ، ولكنّ لهن أيديا وأرجلاً فى بطونهن ، ولهن أذناب مثل أذناب السمك »[١٤] .

كما تعرف عبد الله البَرِّى إلى المدن الأخرى فى عالم البحر ، وإلى الحياة اليومية فى هذا العالم الخيالى ، وهى مدن أقرب إلى المدن الموجودة فى عالمنا ، ففيها المسلمين والنصارى واليهود ، ولكن لا يتزوج منهم سوى « خصوص المسلمين » . ونظراً لامتلاء البحر بالجواهر فإنها كالأحجار لا تمثل قيمة ، ولكن السمك هو السلعة الوحيدة ذات القيمة التبادلية . فهو الزوجة من الأسماك ، وهو طعامهم اليومى الوحيد . والبيوت تقوم بحفرها فى قاع البحر أنواع معينة من الأسماك ، تتحرك بأمر ملك البحر : تدعى « النقارين » ، « فإن كل من أراد أن يصنع له بيتا يروح إلى الملك ويقول له : مرادى أن أتخذ بيتًا فى المكان الفلانى . فيرسل الملك معه طائفة من السمك تسمى النقارين ويجعل كراءهم شيئاً معلوماً من السمك ، ولهم مناقير تفتت الحجر الجلمود ، فيأتون إلى الجبل الذى أراد صاحب البيت وينقرون فيه البيت ، وصاحب البيت يصطاد لهم السمك ، اقمهم حتى تتم المغارة فيذهبون ويسكنه صاحب البيت ، وجميع أهل البحر على هذه الحالة ، لا يتعاملون مع بعضهم ، ولا يخدمون بعضهم إلا بالسمك ، وكلهم سمك »[١٥] .

فهذا التصور الخيالى لعالم البَحر فى « حكاية عبد الله البَرِّى مع عبد الله البَحْرى » ، قائم على أسس واقعية ، ومصوغ بتفاصيل واقعية . وهى ترمى إلى تصوير عالم البحر ، كعالم كامل مواز لعالم البر ، وأنه يمتاز عنه بالثراء الوفير والنقاء والإيمان . فقد رأى عبد الله البَرِّى نحو ثمانين مدينة فى قاع البحر ، وقال له عبد الله البَحرى : « وأى شىء رأيت من مدائن البحر وعجائبه ، وحق النبى الكريم الرءوف الرحيم ، لو فرجتك ألف عام فى كل يوم على ألف مدينة

(١٤) المصدر السابق ، ص ١٤٢٠ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ١٤٢١ .

وأريتك فى كل مدينة ألف أعجوبة ، ما أريتك قيراطاً من أربعة وعشرين قيراطا من مدائن البحر وعجائبه ، وإنما فرجتك على ديارنا وأرضنا لا غير »[١٦] .

أما عبد الله البَرِّى فقد سئم أكل « السمك الطرى » غير المطهى على النار ، وتاقت نفسه إلى الحياة البَرِّية . فعرفه عبد الله البَحْرى على زوجته وأبنائه كما يجرى فى حياتنا اليومية ، غير أنهم ضحكوا عليه لأنه « أزعر بدون ذنب » وقاده إلى ملك البحر الذى ضحك عليه أيضًا ، ولكنه أكرمه ووهبه ما شاء من الجواهر . وأوصاه عبد الله البحْرى بزيارة قبر النبى محمد رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، وسلمه صرة لوضعها على قبره . ولكنهما اختلفا على تقاليد الوفاة فى البَرِّ والبحر ، كما ذكرت من قبل ، فكانت تلك نهاية العلاقة بين عبد الله البَرى وعبد الله البحرى ، وختام الحكاية البحرية كلها . وهو ختام سعيد كما يحدث فى كل حكايات ألف ليلة وليلة ، إذْ عاش عبد الله البَرى فى سعادة كوزير للملك بفضل جواهر البحر .

ومن قصص البحر الأخرى فى ألف ليلة وليلة ، « حكاية ابن خصيب والفارس النحاسى » ، وهى قصة تجمع بين المعارف البحرية العربية السائدة فى زمانها وبين الخيال والأسطورة . وبطل القصة ملك يدعى « عجيب بن خصيب » ، محب للسفر وركوب البحر ، فمدينته تطل على البحر ، والبحر يمتد أمام قصره باتساع وتتناثر حوله الجزر الكثيرة الكبيرة . وله فى البحر ثلاثة أساطيل تجارية وسياحية وحربية « خمسون مركبًا للمتجر وخمسون مركباً أصغر للفرجة ومائة وخمسون قطعة معدة للحرب والجهاد » . وقد دفعه حبه للبحر إلى القيام برحلة طويلة فأنزل فى البحر عشرة مراكب وزودها بزاد شهر كامل . وبعد عشرين يوماً من الرحلة البحرية ، تقلب البحر وهاج وثارت الرياح من كل جانب ، ولم يلبث أن هدأ مع ظهور نور الصباح . فلجئوا إلى جزيرة واستراحوا يومين ، ثم عاودوا الإقلاع فى مياه البحر لمدة عشرين يوم أخرى حتى « اختلفت المياه » عليهم ، فطلبوا إلى « الناظور » « كشف البحر » ، فصعد إلى السارية ، ونظر مليًّا ثم قال « رأيت عن يميني سمكاً على وجه الماء ، ونظرت إلى وسط البحر فرأيت سوادًا من بعيد يلوح ساعة وساعة أبيض . فلما سمع شيخ الملاحين هذا الكلام نتف لحيته وقال للناس : ابشروا بهلاكنا ونحن نبكى على أنفسنا » . وأوضح شيخ الملاحين شارحًا رؤية الناظور بأنهم ضلوا طريقهم فى البحر ، وأن هذا سيقودهم إلى « جبل من حجر أسود يسمى حجر المغناطيس وتجرنا المياه غصبًا إلى جهته فتمزق المركب ويروح كل مسمار فى المركب إلى

(١٦) المصدر السابق ، ص ١٤٢٠ .

الجبل ويلتصق له لأن الله وضع فى حجر المغناطيس سرا وهو أن جميع الحديد يذهب إليه ، وفى ذلك الجبل حديد كثير لا يعلمه إلا الله تعالى ، حتى أنه تكسر من قديم الزمان مراكب كثيرة ؛ بسبب ذلك الجبل ، ويلى ذلك البحر قبة من النحاس الأصفر معمورة على عشر أعمدة وفوق القبة فارس على فرس من نحاس وفى يد ذلك الفارس رمح من النحاس ومعلق فى صدر الفارس لوح من الرصاص منقوش عليه أسماء وطلاسم فيها .. » وخلص شيخ الملاحين إلى أنه « مادام هذا الفارس راكباً إلى هذه الفرس تنكسر المراكب التى تفوت من تحته ويهلك ركابها جميعًا ويلتصق جميع الحديد الذى فى المركب بالجبل ، وما الخلاص إلا إذا وقع هذا الفارس من فوق تلك الفرس »[١٧] .

هذه هى الفكرة المحورية فى « حكاية ابن خصيب والفارس النحاسى » وهى تجمع بين الصياغة الواقعية للمعارف البحرية العربية فى زمانها وبين الخيال والأسطورة ، وتحاول أن تفسر ظاهرة علمية تفسيرًا يجمع بين التفكير العلمى والأسطورى . ويقول أحمد رشدى صالح إنه توجد فى مياه البحر الأحمر بالفعل صخور بركانية وشعاب مرجانية تشع إشعاعات فوسفورية وتشكل خطراً على الملاحة فى البحر الأحمر وإن الخيال الشعبى قد نسج حول هذه العوائق الملاحية عددًا من القصص الخرافية منها أنها تتسبب فى تفكيك المسامير الرابطة لألواح السفن ، بتأثير المغناطيس الموجود فى تلك الصخور . ولذلك فإن العرب تجنبوا وضع المسامير فى سفنهم بالبحر الأحمر واستبدلوها بحبال من الألياف ، على حين ظلت المسامير فى السفن العربية بالبحر الأبيض المتوسط . ويؤكد الدكتور عبد المحسن صالح وجود هذه الشعاب المرجانية فى أعماق البحار التى تشع الأضواء الزاهية[١٨] .

أما بقية حكاية الملك خصيب والفارس النحاسى ، فتحكى مغامرة بحرية ناجحة يقوم خلالها الملك خصيب بالقضاء على الفارس النحاسى ، بعد غرق سفنه بمن عليها ونجاته وحده فى التغلب على الأمواج والوصول إلى قمة الجبل ، أثر سماعه لهاتف أسطورى دله على طريقة اغتيال الفارس النحاسى بقوس من نحاس أيضا « وثلاث نشابات من رصاص منقوش عليها طلاسم » . وعندما يقع الفارس النحاسى ترتفع مياه البحر حتى تصل إلى قمة الجبل ، ويطفو قارب يقوده ملاح نحاسى يسافر به لمدة عشرة أيام إلى بر السلامة ، ولكنه ينطق اسم الله

---

(١٧) المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(١٨) الدكتور عبد المحسن صالح ، أسرار المخلوقات المضيئة ، ص ١٠١ و ١٠٢ .

فينهار الملاح الشيطانى ويغرق الزورق ، ويقع ابن خصيب فى مغامرة أسطورية أخرى بعد أن يقتل ابناً لتاجر جواهر طبقاً لنبوءة المنجمين ، وينتظر حتى يجف ماء البحر فيعبره على قدميه عبورًا صعبًا فى كثبان الرمال الناعمة الكثيفة ليخوض مغامرة برية ثالثة ، لا علاقة لها بالبحر وأدب البحر .

هذه هى أهم حكايات أدب البحر فى ألف ليلة وليلة ، أما ماعداها فهو مكرر ، أو أنها تدور حول البحر ، أو يرد ذكر البحر فيها كثيرًا ، بدون أن يؤثر فى الأشخاص أو الأحداث أو المحتوى الفكرى للحكاية . وسنتابع فى الفصل القادم الوجه المتطور من أدب البحر العربى من ألف ليلة وليلة إلى أدب الملاحة البحرية ، أو أدب المرشدات البحرية ، عند ملاحى الخليج وأعظمهم شأناً الملاح الشاعر ابن ماجد .